

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة بعنوان:

أهمية المسجد في حياة المسلم

أ. د. محمد أبو الفتوح البيانوني

أستاذ أصول الفقه وعلم الدعوة

أُقيمت هذه المحاضرة في مدينة الباب يوم الجمعة

5/جمادى الآخرة/1430هـ

الموافق 2009/5/29 م.

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه المبين: (الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة، لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم.

في بيوتِ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب)35-

38/النور .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي كان من أول أعماله في المدينة المنورة بعد الهجرة بناء المسجد....

ورضي الله عن آل بيته الطيبين الطاهرين، وعن صحابته الأكرمين أجمعين الذين قال الله فيهم: (المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين)108/التوبة.

ورضي الله عمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...

أما بعد فيا أيها الأحبة المؤمنون:

اسمحو لي أن أشكر الأخ الكريم على إتاحة هذه الفرصة للقاء بكم في بيت من بيوت الله التي سأحدث عنها اليوم، وعن أهميتها في حياتنا. فأسأل الله عزوجل أن ينزل علينا سكينته، وتغشانا رحمته، وتحفنا ملائكته، ويذكرنا فيمن عنده...

فقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده) رقم 1/2699.

أيها الإخوة:

تبرز أهمية المسجد في حياة المسلم من عدة أمور، منها:

¹ إشارة إلى سبب اختيار هذا العنوان: كثيراً ما نقرأ ونسمع حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم: (رجل قلبه معلق بالمساجد). وكثيراً ما كنت أفكر: لم كان لهذا التعلق تلك الأهمية الكبرى، والخصوصية العظيمة؟! وكيف يمكن أن نحقق هذا هذا التعلق في نفوسنا ونفوس أولادنا وأجيالنا، فكثيراً ما يظن بعضنا أن أهمية المسجد تكمن في أنه موضع الصلاة فحسب، وليس كذلك: (فقد جعلت الأرض لرسولنا صلى الله عليه وسلم مسجداً وطهوراً)، فحاولت في هذه المحاضرة أن أتلسم جوانب هذه الأهمية للمسجد في حياة المسلم، فرأيته تبرز في جانبين أساسيين هما: 1- جانب خصائصه 2- جانب وظائفه وآثاره

1- من خصائصه التي خصه الله بها.

2- من آثاره الطيبة في الفرد والمجتمع.

أما عن خصائصه: فللمسجد خصائص عديدة لعل من أهمها:

1. أنه منبع النور، ومركز الهدى:

ويظهر هذا جلياً من قوله تعالى: (الله نور السماوات والأرض...) الذي جاء بعده مباشرة (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه..) فكأنه سبحانه يشير إلى مركز إشعاع هذا النور، فيستقي المؤمن نور الله من بيت الله...

وقد جاء في الحديث الشريف عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنه قال: (المساجد بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء، كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض) أخرجه البيهقي في الشعب (83/3)، والطبراني.

ومن هنا: جاء النهي للجنب والحائض والنفساء من دخول المسجد ومن المكوث في منبع النور...

2. إن المساجد مواطن الرحمة الإلهية والسكينة الربانية:

وقد سبق معنا حديث مسلم الذي جاء فيه (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة...). وقد روى الطبراني وغيره عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (المسجد بيت كل تقي، وقد تكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله) وقد حسنه البزار والمنذري والسخاوي بشواهده، انظر بحث (رسالة المسجد الإيمانية) د. مصطفى مخدوم ص6.

ومن هنا:

شرع للإنسان عند دخوله إلى المسجد أن يقول: (اللهم اغفر لي ذنبي، وافتح لي أبواب

رحمتك) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

ويرى بعض أهل العلم: أن المقصود بالرحمة هنا: العطاءات المعنوية: كالإيمان، والسكينة والرضا والسعادة، مستدلين بالمغايرة بين دعاء دخول المسجد والخروج منه، حيث يقول الخارج من المسجد: (اللهم افتح لي أبواب فضلك) لأن الفضل يستعمل غالباً في القرآن الكريم في العطاءات المادية والرزق المحسوس، يقول تعالى في سورة الجمعة:

(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله...) انظر بحث رسالة المسجد ص7.

3. إن المساجد مواطنٌ تنزلُ الملائكة وتَجْمَعُها:

وقد سبق معنا في حديث مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: (... وتحفهم الملائكة...). وجاء في حديث مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(إن لله ملائكةً سيّارةً فُضلاً يتتبعون مجالس الذكر . وغالباً ما تكون مجالس الذكر في المساجد . فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، فيسألهم الله عزوجل . وهو أعلم . من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادٍ لك في الأرض: يسبحونك، ويكبرونك، ويهللونك، ويحمدونك ويسألونك. قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك، قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا، أي رب، قال: فكيف لو رأوا جنتي؟! قالوا: ويستجيرونك، قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك يا رب، قال: وهل رأوا ناري؟! قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟! قالوا: ويستغفرون، فيقول: قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا، قال: فيقولون: رب فيهم فلانٌ عبدٌ خطّاء إنما مرّ فجلس معهم، فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) صحيح مسلم (2689).

ومن هنا:

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكل ثوماً أو بصلاً أن يقرب المسجد، وعلل ذلك بقوله: (... فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) مسلم رقم (564).

كما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية رضي الله عنه على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمّةً لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقلّ عنه حديثاً مني، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال: (ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على أن هدانا للإسلام، ومنّ به علينا، قال: (الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمّةً لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة) مسلم (2701).

4. إن المساجد أحبُّ البقاع إلى الله:

ذلك لأنها مكان الطاعات والقربات، فقد جاء في حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أحب البلاد إلى الله مساجدُها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقُها).

ولهذه الخصائص الربانية للمسجد، خصها الله بأحكام خاصة، حفاظاً على مكانتها، وتشريفاً لها...

- فقد منع من أكل ثوماً أو بصلاً أن يقربها.
- كما منع دخول الجنب والحائض والنفساء إليها ومن المكوث فيها.
- ونهى عن إجراء المعاملات التجارية فيها، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيت من ينشد ضالةً في المسجد، فقولوا: لا ردها الله عليك) رواه الترمذي وقال: حسنٌ غريب.
- وقد مر رجل بالمسجد يبيع، فقال له عطاء: (عليك بسوق الدنيا، فإنما هذا سوق الآخرة) فيض القدير للمناوي (317/6).
- (واستأجر عمر بن عبد العزيز حرساً للمسجد، لا يحترف فيه أحد) رواه ابن شبة في أخبار المدينة (28/1).
- ومنع بعض الفقهاء من القضاء والفصل بين الخصوم في المساجد، لما ينشأ عنه غالباً من التشاجر ورفع الصوت، والتلفظ بالعبارات غير المناسبة.. تفسير ابن كثير (294/3) ومعرفة السنن للبيهقي (354/7).
- وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لمن رفع صوته في المسجد (أتدري أين أنت؟!)
- حتى كره الإمام مالك رفع الصوت بالعلم، وقال: أدركت الناس يكرهون ذلك) شرح النووي رواه النسائي.
- على مسلم (55/5).

أما عن آثار المسجد في الفرد والمجتمع:

فقد أشارت الأحاديث السابقة الواردة عن خصائصه إلى الآثار العظيمة التي يتركها المسجد في الفرد من:

- 1- نزول السكينة عليه
- 2- وغشيان الرحمة له
- 3- وحف الملائكة به
- 4- وذكر الله له فيمن عنده
- 5- ومباهاة الملائكة به...

ولا شك في أن مثل هذه الآثار المعنوية تترك في النفس البشرية الطمأنينة، وتشعره بالسعادة والأمن،

فقد روى ابن أبي شيبة عن (عبد الرحمن بن مغفل) قول: (كنا نتحدث أن المسجد حصن حصين من الشيطان).

كما أشارت آيات سورة النور السابقة إلى أثر عظيم للمسجد في نفوس الناس، فجاء فيها: (ليجزئهم الله أحسن ما عملوا، ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب).

كما أشار قوله تعالى إلى بعض الآثار الهامة في قوله: (إن أول بيت وضع للناس، للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم، من دخله كان آمناً...).

وإن هذه الآثار العظيمة للمسجد في حياة الفرد، ستعكس تلقائياً على المجتمع كله، لأن المجتمع عبارة عن مجموعة الأفراد،

فالمجتمع الذي ينعم أفراد بهذه الطمأنينة والأمن، والسكينة والرحمة وما إلى ذلك فهو مجتمع آمن مطمئن يعم فيه السلم والسلامة، والأمن والطمأنينة، وتقل فيه المنكرات، والجرائم ويغيب فيه الخوف...

وهنا قد يتساءل المرء: لم لا نرى هذه الآثار الفردية والجماعية في مجتمعاتنا، والمساجد كثيرة ومملوءة بالمصلين؟

وفي الإجابة عن هذا أقول:

إن المساجد بمضامينها والهدف الذي أنشئت له، وليست بأعدادها وأشكالها، فقد غلبت على المساجد اليوم العناية بشكل إعمارها، وعدد مآذنها، وسعة ساحاتها، أكثر من العناية بتحقيق أهدافها وغايتها، وتفعيل رسالتها... ومن الملاحظ أنه كلما زادت العناية بالشكل، ضعفت العناية بالمضمون،

ومن هنا:

كره العلماء زخرفة المساجد وتزيينها، فقد روى أبو داود وابن حبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (ما أمرت بتشديد المساجد) أي تزيينها وزخرفتها...

وقد جعل صلى الله عليه وسلم التباهي بالمساجد من علامات قرب الساعة، فقد روى أحمد وغيره (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد) وروى ابن خزيمة عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يأتي على الناس زمانٌ يتباهون بالمساجد، لا يعمرونها إلا قليلاً!).

وإن مسجد ضرار الذي أنشئ في عهده صلى الله عليه وسلم، لم يكن ضراراً بشكله وعمارته، وإنما بأهدافه ومضمونه..

قال تعالى:

(والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، لا تقم فيه أبداً، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين) (107-108/التوبة).

فلا بد من إحياء رسالة المسجد وتفعيلها في المجتمع حتى تظهر آثاره في الأفراد والمجتمعات.

ولعل من وسائل تفعيلها اليوم:

1- توضيح خصائص المسجد للناس، وبيان أهدافه التي بني من أجلها فقد بين صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي بال في المسجد بعض خصائص المسجد ومزاياه...

2- القيام بوظائفه التربوية والعبادية والتثقيفية، والاجتماعية وغيرها للرجال والنساء، والكبار والصغار...

3- ربط أهل الحي بمسجدهم ارتباطاً وثيقاً، والتعرف من خلاله على فقيرهم ومريضهم والمحتاجين فيهم...

4- إقامة حلقات الذكر فيه من حلقات: تربوية، وتعليمية تشد المسلمين إليها، ويشعرون باستفادتهم منها.

5- حسن اختيار الأئمة والخطباء، والمدرسين والوعاظ الذين يفهمون رسالة المسجد، ويستعدون للقيام بحقها، فهم ورثة الأنبياء، وعليهم تعقد الآمال في إحياء رسالة المسجد.

6- تطوير خدمات المسجد لرواده، وتأمين الراحة لهم فيه، ليكون ملجأً وملاذاً لهم في جميع الأوقات...

فإذا فعلت رسالة المسجد تفعيلًا صحيحاً، حقق المسجد للناس الأمن النفسي، والفكري، والسلوكي والاجتماعي، وحمل المسجد المجتمع من أفكار التطرف، وأشكال الفساد والإجرام. ولا بد لتحقيق فعالية رسالة المسجد، من تعاون وثيق بين رواده، وبين الإمام والخطيب، وتفهم كبير لرسالته من الكبير والصغير، والحاكم والمحكوم.

فالمسجد في حقيقته: محض تربيوي، ومركز تعليمي وتنقيفي، ومعلم حضاري، ومنبر إعلامي.

وفي الختام:

أسأل الله عزوجل أن يوفقنا جميعاً للقيام بحق المساجد علينا، ويجعلنا من المحسنين المتعاونين في سبيل مرضاته، وأن يهدينا سبل الرشاد فهو القائل سبحانه: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين).

والحمد لله رب العالمين

ملاحظة:

اعتمدت في كثير من نقاط هذه المحاضرة على بحث (رسالة المسجد الإيمانية) للدكتور مصطفى مخدوم المقدم لمؤتمر الأئمة والخطباء الثالث في الكويت.

كتبها:

أ. د. محمد أبو الفتح البيانوني
أستاذ أصول الفقه وعلم الدعوة

18/جمادى الأولى/1430هـ
2009/5/12م